الاشعرية قنطرة الصوفية

الدكتور عمر المنفي الهلالي

يظهر من كتب الأشعرية والصوفية أن بينهما صلة قديمة، فقد ذكر أبو المظفر الإسفراييني في كتابه «التبصير في الدين» (ص ١٨٧) فصلًا بعنوان: «من فصول المفاخر لأهل الإسلام، وبيان فضائل أهل السنة والجماعة، وبيان ما اختصوا به من مفاخرهم»؛ فعدد العلوم التي يفضلون بها غيرهم فذكر منها: التصوف فقال ص ١٩٢: «وسادسها علم التصوف، والإشارات، وما لهم فيها من الدقائق، والحقائق، لم يكن قط لأحد من أهل البدعة فيه حظ، بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة، والحلاوة، والسكينة، والطمأنينة....».

ثم إن الحافظ ابن عساكر ذكر طبقات الآخذين عن الأشعري والمنتسبين إليه. وهي خمس طبقات، وفي كل طبقة يوجد من ينتسب إلى الصوفية، وسأكتفي بذكر واحد فقط في كل طبقة:

فمن جملة من ذكر في الطبقة الأولى الآخذين عن أبي الحسن الأشعري: أبو عبد الله محمد بن خفيف.

وفي الطبقة الثانية: وهم من تلقى الأشعرية عن أصحاب الأشعري - ذكر أبا علي الدقاق.

وفي الطبقة الثالثة: ذكر أبا ذر الهروي.

ثم ذكر في الطبقة الرابعة: أبا القاسم القشيري.

ثم ذكر في الطبقة الخامسة: أبا حامد الغزالي(١).

ولا شك أن هؤلاء الخمسة الذين ذكرهم ابن عساكر فيهم من كان أكثر إثباتاً للصفات من غيره، كابن خفيف، وأبي ذر الهروي - وأكثر المذكورين من هؤلاء كان

(١) «تبيين كذب المفتري» (ص٢٩١).

السلفية



قد قيد علمه بالكتاب والسنة في الجملة، فلم يكن كبقية الصوفية - وفي ذلك يقول ابن خفيف: «إني أحببت أن أذكر عقود أصحابنا المتصوفة فيما أحدثته طائفة نسبوا إليهم ما قد تخرصوا من القول بما نزه الله تعالى المذهب وأهله من ذلك...»[٢].

وبلغ الأمر ذروته عند أبي حامد الغزالي الذي جمع في كتابه «إحياء علوم الدين» بين قواعد عقائد الأشعرية، وبين جمل غامضة آيلة إلى وحدة الوجود، ويرى أن مرتبة الوحدة هي أعلى المراتب، وأنه لا يجوز كشفها في كتاب، إذ إفشاء سر الربوبية كفر[٣].!!

ثم مع تقدم الزمن كثر الجهل، وانتشرت الصوفية، وكثرت طوائفها، فتجد الشخص الواحد ينتمي إلى أبي الحسن الأشعري عقيدة وإلى الشافعي -مثلًا- مذهبًا، وإلى الصوفية طريقة وسلوكًا -وقد يحدد طريقته-، فلما كثر الجهل، وفشا في الناس الشرك بالله في الاستغاثة، والنذر، والذبح، وغير ذلك أنكر كبار أهل العلم ذلك، وبينوا بطلانه وذرائعه التي أوقعت كثيرًا من الناس فيه؛ فظهر من علماء الأشاعرة من يدافع عن العوام بحجة أن فعلهم: توسل بالنبي ﷺ أو الولي!!

وفيما يلي طائفة من علماء الأشاعرة الذين ارتبطوا ارتباطًا وثيقًا بالصوفية، أو دافعوا عن أفعالهم:

١- السبكي: وقد ألف كتابه «شفاء السقام في زيارة خير الأنام»، يرد به على شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة شد الرحال، وقد رد عليه الحافظ ابن عبدالهادي في كتابه «الصارم المنكي».

٢- ابن حجر الهيتمي: وقد ألف كتابه (الجوهر المنظم في زيارة النبي المعظم) يرد به على شيخ الإسلام ابن تيمية كذلك.

فهذان العالمان الأشعريان قد تكلما في مسألة هي من أكبر ذرائع الشرك، بل قد ذكرا جواز المجيء إلى القبر النبوي لطلب الاستغفار، والتشفع، والاستغاثة به[٤].

---

(٢) «الفتوى الحموية الكبرى» (ص٨١) وهي ضمن «مجموع الفتاوى» (٥/ ٧٨).

(٣) انظر «قواعد العقائد في إحياء علوم الدين» (١/ ٨٩-١١٤)، و«وحدة الوجود» في الكتاب نفسه (٤/ ٩١، ٢٦٢-٢٦٣).

(٤) انظر: «شفاء السقام» (١٦٠-١٦١).

٣- ابن عاشر: وقدر أشار في نظمه[٥]:
إلى ارتباط الأشعرية بالصوفية؛ فقال:

وبعد فالعون من اللهِ المجيد
في نظم أبيات للأمي تفيد
في عقد الأشعري وفقه مالك
وفي طريقة الجنيد السالك

ثم ذكر شارحه: «أن نظمه هذا جمع مهمات العلوم الثلاثة وهي:

العقائد، والفقه، والتصوف، المتعلقة بأقسام الدين الثلاثة، وهي: الإيمان، والإسلام، والإحسان».[٦]

٤- الباجوري: وقد ذكر في آخر شرحه «تحفة المريد على جوهرة التوحيد» شيئًا من مبادئ التصوف، وقد نقل كلامًا غريبًا هو فتح لباب دعاء الموتى والاستغاثة بهم لقضاء الحوائج؛ فقال: «قال الشعراني: ذكر لي بعض المشايخ: أن الله تعالى يوكل بقبر الولي ملكًا يقضي الحوائج، وتارة يخرج من قبره، ويقضيها بنفسه!!».[٧]

٥- محمد الأمير: وهو صاحب الحاشية المشهورة على «شرح جوهرة التوحيد»، وقد ذكر عن نفسه بعد فراغه من حاشيته على «شرح الجوهرة» التي هي في عقيدة الأشاعرة: أنه مالكي المذهب، شاذلي الطريقة؛ فقال: «يقول من لا قول له: محمد الأمير المصري الأزهري المالكي الشاذلي: وافق الكمال ليلة...».[٨]

٦- أحمد دحلان وهو شافعي المذهب، أشعري العقيدة؛ ألف كتابه: «الدرر السنية في الرد على الوهابية» فيه مسائل خطيرة شنيعة في الشرك في الألوهية.

٧) النبهاني: وهو شافعي المذهب، شاذلي الطريقة، أشعري العقيدة؛ ألف كتابه «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق»، ونص فيه على أن الأشعرية والماتريدية مذهبان لأهل السنة![٩]: وقد حشد في كتابه المذكور أقوالًا شنيعة، صريحة في الشرك في الألوهية.

٨- محمد الطاهر يوسف: وهو صوفي أشعري معاصر؛ ألف رسائل منها:

(٥) «المرشد المعين» (ص٦) مع شرحه «الحبل المتين».
(٦) «الحبل المتين شرح المرشد المعين» (ص٧).
(٧) «تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد»(ص١٥٣).
(٨) «حاشية الأمير على شرح جوهرة التوحيد» (ص١٦٠).
(٩) «شواهد الحق» (ص٧٢).

السلفية

«رسالة قوة الدفاع والهجوم»، قال في مقدمة رسالته: «رسالة قوة الدفاع عن أولياء الله والنبي المعصوم، والهجوم على أنصار فرق الشيطان المرجوم، وهم أنصار الفرق المعتزلة عن السنة المحمدية[10]، والمستخفة، والمستنقصة لقدر سيدنا محمد خير البرية ﷺ، والمكفرة لأولياء الله أهل المقامات العلية رضوان الله عليهم بكرة وعشية. تأليف عبيد ربه محمد بن الطاهر بن يوسف الفاني، المالكي الأشعري التجاني»[11].

٩- محمد علوي المالكي: وهو معاصر، الذي صنف كتابًا سماه: «مفاهيم يجب أن تصحح»، قال في كتابه المذكور: «التصوف ذلك المظلوم المتهم قليل من ينصفه...»[12] وقال: «الأشاعرة هم أئمة أعلام الهدى من علماء المسلمين»[13].

فهذه نماذج من ارتباط الأشعرية بالصوفية، والواقع اليوم أكبر شاهد على هذه العلاقة.

ولتوضيح ذلك لا بد من الإجابة على سؤالين:

الأول: ما علاقة الأشعرية الصوفية المتقدمة مع الأشعرية الصوفية المتأخرة؟

الثاني: هل ينسب ما وقع فيه الصوفية اليوم في بعض صور الشرك إلى الأشعرية كلها - ولو كان ذلك في بعضهم؟

أما الجواب عن السؤال الأول:

فإن المتقدمين من هؤلاء الصوفية المنتسبين إلى الأشعرية لم يكن تصوفهم كتصوف الملاحدة، والباطنية، ودعاة وحدة الوجود، والاتحاد والحلول، بل لا يعرف عنهم الوقوع في شرك العبادة كما حصل عند المتأخرين، فالعلاقة إذًا في الاسم العام. ثم حصل التدرج في الضلال كما في مرحلة الغزالي، ثم من جاء بعده إلى أن استقر الأمر على ما هو عليه في العصور المتأخرة التي نعيشها، حيث

(١٠) ومراده: أنصار السنة المحمدية بالسودان -إذ الكتاب طبعه مؤلفه في الرد عليهم- كما يظهر في مقدمته المنقولة أعلاه.
(١١) «رسالة قوة الدفاع والهجوم» (ص١)، وهي كذلك في آخر صفحة من الكتاب.
(١٢) في (ص٣٥) - تحت عنوان: «دعوة أئمة التصوف إلى العمل بالشريعة!».
(١٣) في (ص٣٨) تحت عنوان: (حقيقة الأشاعرة!).

الشرك الصريح في العبادة، فإذا ألف أشعري كتابًا على نهج الأشعرية ذيل كتابه بالتصوف، وقد يوجد منه نقد لبعض الأخطاء الجسيمة في الربوبية، والبدع إجمالاً، ولا ينبه على الخطأ في الألوهية[١٤]، وقد يؤلف آخر مدافعًا عن ما يفعله الناس من الشرك في الألوهية باسم التوسل والتبرك! والبدع كالموالد وغير ذلك، ثم ينص على بعض الفضلاء من الصوفية كالجنيد، وعبدالقادر الجيلاني، ويفر من ذكر الحلاج، وابن الفارض!! وغيرهما دون ذم أو مدح، مع وجود تأثيرها على الصوفية في هذه العصور..!! وإن كان يوجد قليل ممن رأيتهم -وقد يوجد غيرهم- ممن لا يقع في شرك العبادة، وسيأتي الكلام عليهم في الجواب عن السؤال الثاني إن شاء الله.

والجواب عن السؤال الثاني:

وهو أنه لا يمكن نسبة صور الشرك التي ظهر بعضها إلى كل الأشعرية المتقدمين منهم والمتأخرين، إذ المتقدمون على خلاف هذا الأمر ولكن تبقى مسألة التبني العام للصوفية -كما ذكر الإسفراييني- مؤثرة في قبول ما عليه التصوف عند المتأخرين!

أما المتأخرون فهم قسمان:

قسم صرح بالقول بجواز بعض صور الشرك كالنذر لغير الله، والطواف بقبور الصالحين، والاستغاثة بغير الله.

وقسم لم يصرح بذلك - وقد رأيت بعضهم -وهم قليل جدًا- ولكنهم لم يجاهروا بالإنكار قولاً، ولا فعلاً، مع سماعهم نسبة التصوف بجميع طوائفه إلى الأشعرية وإخوانهم الماتريدية.

ولا شك أن أمثال هؤلاء داخلون في عموم الوعيد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] -كيف وقد ينتسب

(١٤) انظر مثالًا لهذا في «شرح جوهرة التوحيد للباجوري» (ص ٢٠٩ إلى آخر الكتاب).

بعضهم إلى التصوف، فيشتغل ببعض البدع غير المكفرة- فيزداد إيهامه للناس بنسبته إلى التصوف، فيغتروا به، فيستحسنوا عندئذ ما هم عليه من الشرك.

فخلاصة الأمر؛ هو: أن المتقدمين من الأشاعرة لم يظهر منهم ما يخالف توحيد الألوهية، بل ثبت أن بعضهم أنكر بعض مظاهر الشرك التي تحدث عند القبور: كالرازي، وأبي شامة – أما الأشعرية المتأخرة فيمكن نسبة بعض المخالفات إليهم: إما وقوعًا منهم فيها، أو سكوتًا عنها إذا رأوا غيرهم يقع فيها، ومثل هذا يعد تغيرًا، وزيادة انحراف في المنهج الأشعري تجب مراعاته، إذ تغير الفرق أمر وارد، فيجب الإنكار اليوم على الأشعرية في هذه المسألة كما أنكر عليهم سلفًا ما تكلموا فيه من مسائل الصفات.[١٥]

(١٥) «منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى» لخالد عبد اللطيف (١/ ١٦٢).

معرفة السلف بالفرق والملل والنحل

ركب مع أبي بكر بن عياش في سفينة ثلاثة رجال: مرجئ، وحروري (خارجي)، ورافضي.

فاختلفوا فيما بينهم، فجاءوا إلى أبي بكر بن عياش، فقالوا له: احكم بيننا.

قال: قد عرفتم خلافي لكم كلكم.

قالوا: على هذا؛ فاحكم بيننا.

فقال للرافضي: ما في الدنيا قوم أجهَل منكم: تزعمون أن الأمر لصاحبكم، فتركه في حياته، وسلمه لغيره، ثم تبغون أن تأخذوا له بعد وفاته!!

وقال للحروري (الخارجي): تتورعون عن قتل النساء والولدان، وتستحلون سفك دماء المسلمين.

وقال للمرجئ: أنت أحمق الثلاثة: هذان يزعمان أنك في النار، وأنت تزعم أنهما في الجنة.

«تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٨٠).